أصول الليبرالية

وموقف الإسلام منها

إعداد

أحمد بن محمد بن عبد الكريم اللهيب



ح مدار الوطن للنشر، ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللهيب، أحمد محمد

أصول الليبرالية وموقف الإسلام منها/ أحمد محمد اللهيب

- الرياض، ١٤٣٦هـ

... ص؛ ..... سم.

ردمك: ٠ - ٥ - ٩٠٥٩٩ -٦٠٣ - ٩٧٨

١- الإسلام والليبرالية *أ- العنوان*

ديوي ٢١٤,٣٢,٥١ ١٤٣٦/٧٠٠

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٠٠
ردمك: ٠-٥-٩٠٥٩٩-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م



المملكة العربية السعودية - الرياض
ص.ب ٢٤٥٧٦٠ الرمز البريدي ١١٣١٢
المقر الرئيسي - الروضة - ت: ١١٢٣١٣٠١٨
ت: ١١٤٧٩٢٠٤٢ (٣خطوط) - ف: ١١٢٣٢٢٠٩٦
فرع السويدي - ت: ١١٤٢٦٧١٧٧ - ف: ١١٤٢٦٧٣٧٧
K.S.A / Riyadh11312 P.O.Box: 245760
Rawdah / Tel.:112313018 Fax:112322096
Swaidi / Tel.:114267177 Fax:114267377
الموقع الإلكتروني | www.madaralwatan.com
البريد الإلكتروني | pop@madaralwatan.com
madaralwatan@hotmail.com

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ، أما بعد:

فلقد أقام الله الحُجَّة على خلقه بكتابه وسنة رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقد وفَّق الله تعالى سلف هذه الأمة الصالح إلى الاعتصام بالكتاب والسنة، فكان من أصولهم المتَّفق عليها أنه لا يُقبَل من أحد أن يُعارض القرآن والسنة لا برأيه ولا ذوقه ولا معقوله ولا قياسه؛ لأنه قد ثبت عندهم بالآيات البيِّنات والبراهين القَطْعِيَّات أن الرسول ﷺ جاء بالهدى ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم فكان القرآن هو الإمام الذي يُقتدى به، وأن الرسول ﷺ قد بيَّن ما أُنزل إليه من ربه بيانًا شافيًا قاطعًا للعذر، ولاسيما ما يتعلق بأصول الدين مسائله ودلائله؛ ولهذا لا يوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض صحيح المنقول بعقل ورأي[1].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى»، لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٣/ ٢٨)، و«درء تعارض العقل والنقل»، لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٢٧)، و«إعلام الموقعين عن رب العالمين»، لابن القيم (١/ ٤٩).

والسلف رحمهم الله كما يحتَجُّون بصحيح المنقول[١] فهم يحتَجُّون بصريح المعقول[٢] الموافق لصحيح المنقول، فإنها جميعًا حُجَّة الله على خلقه «والعقل الصريح لا يتناقض في نفسه، كما أن السمع الصحيح لا يتناقض في نفسه، وكذلك العقل مع السمع»[٣].

وهم مع ذلك يضعون العقل في موضعه الصحيح، ولا يتجاوزون به حَدَّه الذي يليق به، فالعقل شرط في معرفة العلوم وكمال وصلاح الأعمال، لكنه ليس مستقلًا بذلك؛ لحاجته إلى نور الإيمان والقرآن، وإنْ انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وَحْده عن إدراكها[٤].

وفي العصر الحاضر نبتت في الأمة نابتة تأثرت بالواقع الغربي تأثرًا كبيرًا، وذلك نتيجة للواقع الصعب الذي تمر به هذه الأمة، حيث أن الأمة الإسلامية تعيش في أصعب مراحلها التاريخية، حيث سيطر الغرب الصَّليبي على مقاليد السياسة والاقتصاد الدولي، وأصبحت الأمة الإسلامية ضعيفة متخلفة يتحكم فيها الأعداء، ويتدخلون في شؤونها الخاصة، ويفرضون عليها الأنظمة والمذاهب المختلفة.

ومن خلال الاحتلال المباشر، والضغوط السياسية والاقتصادية، والإعلام الموجه، والهزيمة النفسية، والفراغ العَقَدي - فُرض على الأمة الإسلامية أنظمة

---

(١) أي الكتاب وصحيح السنة. انظر: «درء تعارض العقل والنقل»، لابن تيمية (٧/ ٢٨٤).

(٢) أي الأدلة العقلية التي لا تخالف الكتاب والسنة. انظر: «الصفدية»، لابن تيمية (١/ ١٣٠).

(٣) «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة»، لابن القيم (٣/ ١١٨٧).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية (٣/ ٣٣٨)، «وبيان تلبيس الجهمية»، لابن تيمية (١/ ٢٤٧).

وأفكار وسلوكيات تنطلق من فلسفات مادية إلحادية تحت شعارات خادعة، كـ: الحرية، والتسامح، والانفتاح، والإصلاح، وحقوق الإنسان...وغيرها.

وقد أصبح لهذه المذاهب أثر واضح على المجتمعات الإسلامية، وتَبَنَّت فئات منحرفة من أبناء هذه الأمة هذه الفلسفات الإلحادية، وقاموا بالترويج لها، والدفاع عنها؛ مدعية أنها تتفق مع روح الإسلام ولا تنافيه!

ومن أبرز هذه المذاهب الإلحادية «الليبرالية»، وقد ظهرت في المجتمع الغربي في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وقويت وانتشرت في أواخر القرن العشرين؛ لتَبَنِّي القوى العظمى لها، وزاد ظهورها بعد سقوط النظام الشيوعي، وفُرِضت على سائر الأنظمة بحكم تبعية المغلوب للغالب. وأما النخب المثقفة فلم تَحْتَج إلى جهد كبير في تبعيتها وتأثُّرها بها؛ ذلك لأنه أصبح من محددات المثقف كونه يدعو إلى المبادئ الليبرالية؛ لأن مَن لم يَدْعُ إليها فهو مُستبِد ويمثل الرجعية، في ثنائية ساذجة انطلت على مسلوبي الإرادة.

فكان هذا البحث محاولة للوقوف على حقيقة الليبرالية، وهل أصولها فعلًا تدعو إلى تحرير العنصر البشري من طغيان القوى المستبدة؟ وهل بالفعل المنتَج الليبرالي يوافق الإسلام، أم هي دعوى بلا برهان؟

وقد قسمت الدراسة إلى ما يلي:

المبحث الأول: تعريف الليبرالية، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الليبرالية في دلالتها اللغوية.

المطلب الثاني: مفهوم الليبرالية.

المبحث الثاني: أصول الليبرالية، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الفردية.

المطلب الثاني: الحرية.

المطلب الثالث: العقلانية.

الخاتمة.

ختامًا: أعود بالفضل لأهله وذويه، فأحمد الله تعالى وأشكره على تيسيره وتوفيقه وعونه، وأسأله أن يبارك بهذا البحث، وأن ينفع به كاتبه وقارئه ومَن كُتِب له، إنه جواد كريم.

فهذا جهد المُقِل، فما كان فيه من صواب فمن توفيق الله وحده، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله وأتوب إليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،،

المبحث الأول

تعريف الليبرالية

المطلب الأول: الليبرالية في دلالتها اللغوية:

الليبرالية مُصطلحٌ مُعَرَّب، أصلُه في الإنجليزية «Liberalism» ، وفي الفرنسية «libéralisme» ، وهو يعني «التحررية»، ويعود اشتقاقه أيضاً إلى الكلمة الإنجليزية «Liberty» أو الفرنسية «liberté» والتي تعني الحُرية. ويرجع لفظ الليبرالية من حيث الاشتقاق اللغوي إلى اللفظ اللاتيني «ليبراليس»، الذي يعني: الشخص الكريم، النبيل، الحر[1].

ومن بين هذه الاشتقاقات اللغوية نلحظ أن هذا المصطلح في خضم صَيرُورته الفكرية سيقتصر في دلالته على المعنى الأخير (الحرية).

المطلب الثاني: مفهوم الليبرالية:

لم يتفق صناع الفكر الليبرالي ومُنظِّريه على تعريف محدد له، وإنما اتفقوا على إشكالية مفهوم الليبرالية، وهو الغموض الذي يحيط بالمصطلح في نفسه، واللَّبس والتداخل بل والتنازع. وهو من أكثر الموضوعات إثارة للإشكالية وتعقيدًا، ولعل ذلك يظهر جليًا من خلال تعبيرات مؤرخي الفكر الأوربي:

---

(١) انظر: «المعجم الفلسفي»، جميل صليبا (١/ ٤٦١)، و«موسوعة لالاند الفلسفية»، (٢/ ٧٩٨).

يقول «رولاند سترومبرج» في كتابه «تاريخ الفكر الأوروبي»: «والحق أن كلمة ليبرالية مصطلح عريض غامض، شأنه في ذلك شأن كلمة «الرومانسية»، ولا يزال حتى يومنا هذا على حاله من الغموض والإبهام»[١].

وجاء في الموسوعة الشاملة: «تعتبر الليبرالية مصطلحًا غامضًا؛ لأن معناها وتأكيداتها تبدلت بصورة ملحوظة بمرور السنين ... ونادرًا ما توجد حركة ليبرالية لم يُصبها الغموض، بل إن بعضها تنهار بسببه»[٢].

ويقول «لالاند» في موسوعته، بعد استعراضه لعدد من التعريفات الليبرالية: «نرى من خلال التعريفات السابقة مدى التباس هذا اللفظ»[٣].

ووصف «برتراند راسل» الليبرالية بأنها: «تسمية أقرب إلى الغموض، يستطيع المرء أن يدرك في ثناياها عددًا من السِّمات المميزة»[٤].

وفي الموسوعة العربية العالمية: «...وتعتبر الليبرالية مصطلحًا غامضًا؛ لأن معناها وتأكيداتها تبدَّلت بصورة ملحوظة بمرور السنين»[٥].

وأكد الأستاذ «وضاح نصر» إشكالية مفهوم الليبرالية، بقوله: «تبدو بَلْورة تعريف واضح ودقيق لمفهوم الليبرالية أمرًا صعبًا وربما عديم الجدوى. وفي حال

---

(١) «تاريخ الفكر الأوروبي الحديث»، رونالد سترومبرج (ص٣٣٧).

(٢) نقلًا عن «حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها»، د. عبد الرحيم السلمي (ص ١١٤).

(٣) «موسوعة لالاند الفلسفية»، (٢ / ٧٢٦).

(٤) «حكمة الغرب»، برتراند راسل (٢/ ١٠٣).

(٥) «الموسوعة العربية العالمية» (٢١/ ٢٤٧).

تحديد الليبرالية نجد أن هذا التحديد لا ينطبق على عدد من الفلاسفة والمفكرين الذين سِيموا بسِمَة الليبرالية»[١].

ويمكن إرجاع هذه الإشكالية في مفهوم الليبرالية إلى الأسباب التالية[٢]:

١ - غموض مبدأ الفردية:

يكاد يتفق فلاسفة الغرب ومفكريه على أن الليبرالية هي فلسفة الحرية، وأن النزعة الفردية هي مادة الحرية الحقيقية.

لكن المأزق الحقيقي يبدو إذا علمنا أن مبدأ الفردية لدى مفكري الغرب ذو أوجه عديدة وأنماط متعددة، ووجهات نظر متباينة، وجميعها يمثل الفرد رَكيزتها الأساسية، لكن أي فرد نقصد؟ الفرد في صورته المجردة، أم ككيان مستقل ذاتيًّا؟ هل هو الفرد (الخاص) في مقابل الجماعة (العام)، أم الفرد كمرادف للأناني، وكمقابل للإيثار (الغَيْري)، أم نقصد الفرد صاحب الحق الطبيعي في الحياة، والملكية الفردية، وحقوقه السياسية، أم ذلك الفرد الاقتصادي صاحب المشروع الحر، وأخيرًا الفرد ككيان أخلاقي مطلق أم نسبي.. إلخ؛ غير أن جميع هذه الصور تنضوي تحت شعار: النزعة الفردية[٣].

والنتيجة: ليس ثَمَّة نمط فردي معين يمكن أن يمثل طابعًا مميزًا لليبرالية!

---

(١) «الموسوعة الفلسفية العربية» (٢ / ١١٥٥).

(٢) هناك عدة أسباب، لكنني سأدون أظهرها بالنسبة لي، للاستزادة راجع: «حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها»، د. عبد الرحيم السلمي (ص ١١٤- ١٢٠)، و«موقف الليبرالية في البلاد العربية من محكمات الدين»، د. صالح الدميجي (ص ٤٨- ٥٠).

(٣) انظر: «الليبرالية إشكالية مفهوم»، د. ياسر قنصوة (ص ٢٠).

٢- غموض مبدأ الحرية:

يعتمد مفهوم الليبرالية عل الحرية اعتمادًا تامًّا، ولا يمكن إخراج «الحرية» من المفهوم الليبرالي عند أي اتجاه يعتبر نفسه ليبراليًّا.

ولكن مفهوم الحرية مع سهولته وإثارته وكثرة كلام الناس فيه، لا يمكن تحديده وضبطه؛ لأن أصحاب الأفكار المختلفة في الحرية الليبرالية يعتمد كل واحد منهم على «الحرية» في الوصول لفكرته[1]!

جاء في الموسوعة البريطانية: «وحيث أن كلمة «الحرية» هي كلمة يكتنفها الغموض فكذلك هو الحال مع كلمة ليبرالي، فالليبرالي قد يؤمن بأن الحرية مسألة خاصة بالفرد دون غيره، وأن دور الدولة يجب أن يكون محددًا، أو قد يؤمن بأن الحرية هي شأن خاص بالدولة، وأن الدولة باستطاعتها أو يمكن استخدامها بمثابة أداة لتعزيز الحرية»[2].

فهذا الغموض في تحديد حقيقة «الحرية» يؤدي إلى عدم إمكان تحديد مبدأ الحرية وضبطه، فهل الحرية مسألة خاصة بالفرد دون غيره، أم أنها شأن خاص بالدولة.

وبسبب هذا الغموض خرجت- من رحم الحرية- أفكار تخالف الليبرالية مثل: (الفاشية، والنازية، والشيوعية) وكل واحدة من هذه المذاهب تنادي بالحرية، وتدعي أنها الممثل الشرعي لها، وتتهم غيرها بأنه ضد الحرية.

---

(١) انظر: «حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها»، د. عبد الرحيم السلمي (ص ١١٤).
(٢) نقلًا عن المصدر السابق (ص ١١٤).

٣- مسايرة الليبرالية للواقع:

تعد من السمات البارزة لليبرالية أنها تتغير وتتشكل بتغيُّر الظروف المحيطة بها، فهي تارة تتقمص مبدأ الفردية، وتارة أخرى تنحو ناحية المذهب الجَمْعِي، وتارة تميل إلى الموقف الاقتصادي، وأحيانًا إلى الموقف السياسي.

يقول علي حرب: «لا يسع المرء أن يتحدث عن الليبرالية بلغة أهل القرن الثامن عشر، ولا بلغة أهل الخمسينات من هذا القرن. لا يسعه أن يفهمها بالمفهوم الاقتصادي لسميث أو لكينز، ولا بالمفهوم السياسي للأحزاب الليبرالية، ولا حتى بالمفهوم الفلسفي لسارتر. وإنما يفهمها من خلال اللحظة التاريخية التي ينخرط فيها، وفي ضوء العالم الفكري الذي ينتمي إليه»[١].

ويري «فريدمان»: أن مصطلح الليبرالية استُخْدِم في أوروبا بمعنى «الليبرالية الكلاسيكية»، ولكن بسبب إخفاق الفكر الليبرالي الكلاسيكي في الولايات المتحدة الأمريكية بعد الكساد الكبير ١٩٢٩م، أصبح يُسمَّى هذا الفكر «بالمحافظ».

وبالتالي أصبح مصطلح الليبرالية في أمريكا مختلفًا تمامًا عن المصطلح نفسه في أوربا، ففي أوربا يُقصَد بالليبرالية «منع تدخل الدولة»، أما في أمريكا فمعناه الجديد «ضرورة تدخل الدولة»[٢].

---

(١) «أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر»، علي حرب (ص١١٦).

(٢) انظر: «الرأسمالية والحرية»، ميلتون فريدمان (ص٨-٩).

٤- تعدد واختلاف الانتماءات الفكرية والثقافية لمُنظِّريها ودعاتها:

الليبرالية فلسفة تعددت فُهُومها؛ وخضعت تعريفاتها إلى المبادئ والمُثُل والمرجعيات الثقافية لرموزها، بحيث انعكس ذلك على تعريفها[1].

ولعل النَّسَق التاريخي في تكوين الفكر الليبرالي، وأنه نشأ كردة فعل - إزاء الأفكار الكلاسيكية- غير ناضجة حَوَت في أصل بنائها الفكري خليطًا من الفلسفات والأفكار السائدة التي وظَّفتها في نَيْل أهدافها وتحقيق غايتها، كما أنه ساهم في صياغة أفكارها الفلسفية عدد كبير من المفكرين على تباين رؤاهم، حيث كان من أبرزهم: جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤م)، وآدم سميث (١٧٢٣-١٧٩٠م)، وجيرمي بنثام (١٧٤٨-١٨٣٢م)، وجون ستيوارت مل (١٨٠٦-١٨٧٣م)، وجان فرانسوا فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨م)، وجان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨م) وأليكسيس دي توكفيل (١٨٠٥-١٨٥٩م) وغيرهم.

قد عَقَّد مدلولَ الليبرالية، وزاد في إبهامه أنَّ الليبرالية كمصطلح عصري وناشئ، ويحمل في طياته الدعوة إلى «الحرية» التي أسكرت المجتمعات الغربية - جعلت كل فيلسوف يدَّعي أن مذهبه وفكره بما أنه يدعو للحرية فهو المذهب الليبرالي الحق.

---

(١) انظر: «إشكالية المصطلح في الفكر العربي الاضطراب في النقل المعاصر للمفهومات»، علي بن إبراهيم النملة (ص٩٧ - ١٠١)، و«موقف الليبرالية في البلاد العربية من محكمات الدين»، د. صالح الدميجي (ص ٩٩).

وقد أكد هذا المعنى «عبد الله العروي» بقوله: «المنظومة الليبرالية لا تعمل بمفردها في العهد الليبرالي، بل توظف لمساعدتها مذاهب أخرى قديمة وأجنبية تُؤَوِّلها حسب أغراضها»[١].

ويقول «د. رفعت السعيد»: «...لأن الليبرالية هي منطلق ووجهة نظر؛ فإن فهم الليبرالية وتحديد معناها ومحتواها يتعلق أساسًا بالانتماء الفكري، وربما الطبقي لكل فرد»[٢].

٥- ارتباط مصطلح الليبرالية بالرأسمالية:

ارتبطت الليبرالية منذ نشأتها الأولى بالطبقة الرأسمالية، وأصبحت خادمًا فكريًا لها، يبرر طغيانها وأنانيتها تبريرًا عقليًّا، وقد تغيرت الأفكار الليبرالية زمانًا ومكانًا بناء على مصالح الرأسمالية، وهذا ما يفسر التعدد الغريب في الفكر الليبرالي.

فقد أكد «جون لوك»: على ضرورة الملكية الخاصة، وأنها تدخل بصورة أولية في حقوق الأفراد الأساسية، ولهذا فقد جعل للرأسماليين والملاك حق الانتخاب بينما لم يعط الفقراء وغير الملاك هذا الحق[٣]!

يقول «د. يوسف القرضاوي»: «الحرية التي ينادون بها هدفًا ويرفعونها شعارًا هي – عندهم – مجرد مفهوم مائع مطاط غامض؛ هم الذين قصدوا أن يميعوه ويمططوه ويغمضوه ... ليفسروه على هواهم، ويطبقوه حسب مزاجهم ومصلحتهم الشخصية أو الحزبية أو الطائفية»[٤].

---

(١) «مفهوم الحرية»، عبد الله العروي (ص ٧٤).
(٢) «الليبرالية المصرية»، د. رفعت سعيد (ص ٩).
(٣) نقلًا عن: «حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها»، د. عبد الرحيم السلمي (ص ١٢٠) بتصرف.
(٤) «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا»، د. يوسف القرضاوي (ص ٢٢٠).

فمفهوم الليبرالية يتغير ويتبدل بين حين وآخر؛ ليلائم غرضًا أو مصلحة بعينها لفئة أو طبقة أو جماعة محددة.

وهذا الالتباس في المفهوم لا يمنع تلمّس مقاربات تقود إلى معرفة طبيعة الليبرالية وسماتها التي تميزها عن غيرها من المفاهيم والمصطلحات، فأقول: أن الليبرالية من الناحية الفكرية تعني «حرية» الاعتقاد والتفكير والتعبير، ومن الناحية الاقتصادية تعني حرية الملكية الشخصية وحرية الفعل الاقتصادي المنتظم وفق قانون السوق، وعلى المستوى السياسي تعني حرية التجمع وتأسيس الأحزاب واختيار السلطة.

وهكذا يظهر لنا أن مقولة: الحرية لا تُشَكِّل فقط مبدأ من جملة المبادئ، بل هي مرتكز لتأسيس غيرها من المبادئ، مع ضرورة الوعي بأن لفظ الحرية ذاته ليس لفظًا محدد الدلالة ولا محدود الأبعاد.

المبحث الثاني

أصول الليبرالية

تقوم الليبرالية على أسس فكرية هي القَدْر المشترك بين سائر اتجاهاتها وتياراتها المختلفة، ولا يمكن اعتبار أي فرد ليبراليًّا وهو لا يقر بهذه الأسس ولا يعترف بها، لأنها هي الأجزاء المكونة لهذا المذهب والمميزة له عن غيره.

وتنقسم هذه الأسس المكونة لليبرالية إلى قسمين:

١ - ذاتي مُميِّز لليبرالية عن غيرها من المذاهب الفكرية الغربية التي ظهرت في عصر النهضة والتنوير، وهما: «الحرية» و«الفردية».

٢- مشترك بين الليبرالية وغيرها من المذاهب الفكرية الغربية، وهو: «العقلانية»، فكل المذاهب التي ظهرت في أوروبا في العصر الحديث خرجت من الفكر العقلاني، الذي يعتقد باستقلال العقل في إدراك المصالح الإنسانية في كل أمر دون الحاجة إلى الدين.

فالليبرالية حقيقة مركبة تركيبًا تامًّا من «الحرية، الفردية، العقلانية»، ولكن هذه الأسس المُكوِّنة لحقيقتها مُجْمَلة، تعددت تصورات الليبراليين في تفصيلاتها الفكرية، فضلًا عن آثارها العملية، والطريقة التطبيقية أثناء العمل السياسي أو الاقتصادي[1].

---

(١) انظر: «حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها»، د. عبد الرحيم السلمي (ص١٢٢) بتصرف، و«الإسلام والليبرالية نقيضان لا يجتمعان»، د. شحاتة محمد صقر (ص٣٢).

المطلب الأول: الفردية:

علاقة النزعة الفردية بالليبرالية تتمثل في كونها الصيغة المعتمدة لفهم التوجهات الليبرالية، فهي دائمًا ما يُنظَر إليها كمدخل رسمي إلى عالم الليبرالية، فما كانت الليبرالية لتبرز على ساحة الفكر الإنساني مالم تكن الفردية قد أكدت خصوصيتها وسماتها المميزة.

لذلك يقول «جون ديوي»: «كانت فكرة الحرية مرتبطة في تقاليد مذهب الأحرار -عند كل من الأمريكيين والإنجليز- بفكرة «الفردية»، أي بالفرد نفسه من حيث هو فرد. وكان هذا الارتباط وثيقًا وكثير الورود على الألسنة، حتى خاله الناس أمرًا ذاتيًّا أصليًّا. فكان الكثيرون يدهشون إذا ما سمعوا بأن أحدًا يزعم أن للحرية مصدرًا آخر وأساسًا آخر غير طبيعة هذه الفردية نفسها...»[(١)].

وقد جاءت هذه الفردية بمفهومين مختلفين:

أحدهما: الفردية بمعنى الأنانية وحب الذات، وهذا المعنى هو الذي غلب على الفكر الغربي منذ عصر النهضة وإلى القرن العشرين، وهذا هو الاتجاه التقليدي في الأدبيات الليبرالية.

والثاني: الفردية بمعنى استقلال الفرد من خلال العمل المتواصل والاعتماد على النفس، وهذا هو الاتجاه البراجماتي[(٢)]، وهو مفهوم حديث للفردية.

---

(١) «الحرية الثقافية»، جون ديوي (ص٣٣).

(٢) البرجماتية: أو «البرغماتية» نسبة إلى «برغما» وهي كلمة يونانية معناها العمل، وهي مذهب ظهر في أواخر القرن التاسع عشر على لسان: تشارلز بيرس، ووليام جيمس الأمريكيَّيْن. وفحواه أن المعرفة مجرد ذريعة إلى العمل، وأن الصدق تابع للخبرة، وأن مقياس الصواب في المعرفة والعمل هو الاستفادة. «معجم الفلسفة»، محمود يعقوبي (ص١٧-١٨).

ومن خلال هذين القسمين يتضح المقصود بالفردية في المذهب الليبرالي، ولكي نقف على حقيقة الفردية الليبرالية لابد من الوقوف على المراد بالفردية في كل قسمٍ:

أولاً: الفردية الكلاسيكية ـ التقليدية ـ:

يُقصد بالفردية التقليدية: هي اهتمام المرء بنفسه، ومحافظته على ذاتيَّته، واستقلاله وكيانه(١).

ويرى أصحاب المذهب التقليدي أن الإنسان فردي النزعة، وأن المجتمع مفروض عليه من خارج نفسه، مُتَحَكِّم فيه بغير إرادته، ومن ثَمَّ فهو مكروه، وتفتيته وتفكيكه حلال(٢).

ويقوم المذهب الفردي على إبراز كيان الفرد حتى يجعله مقدسًا، يحرم على المجتمع المساس بحريته، وليس له أن يُحَرِّج عليه، وليس له أن يقول له: هذا خطأ وهذا صواب(٣).

وقد ظهر هذا التصور منذ عهد أفلاطون واستمر إلى نهايات القرن التاسع عشر، على تباين في التعبير عنه، فأفلاطون يرى في أدبياته الفكرية أن حرية الفرد مقدسة – ويقصد بالفرد هنا الحر دون الرقيق- ولا يحق للدولة تقييد هذه الحرية، في حين يذهب أرسطو إلى ضرورة منح جميع الأفراد كامل حريتهم، ولا يمكن

---

(١) انظر: «شخصية المسلم»(ص١٢).

(٢) انظر: «منهج التربية الإسلامية»، (ص١٦٣).

(٣) انظر: «جاهلية القرن العشرين»، (ص١٣٠).

للفرد أن يتمتع بتلك الحرية إلا عن طريق الدولة التي تقوم بسن قوانين الغاية منها تنظيم حرية الأفراد[1].

واستمر هذا التصور في العلاقة بين الفرد والدولة بين مَدٍّ وجذب حتى القرن الخامس عشر، ومع حلول عصر النهضة نجد أن المذهب الفردي قد أرسى مبدأين أساسيين، هما:

١ - الحرية.

٢ - عدم تدخل الدولة.

ودخلا في جميع جوانب الحياة: فمن الناحية السياسية استخلص دعاة المذهب الفردي من نظرية العقد الاجتماعي لـ(هوبز، ولوك، وجان جاك روسو) أن الحرية: حق طبيعي لَصِيق بالشخصية الإنسانية لا يجوز النيل منه أو تقييده إلا من أجل المحافظة عليه؛ ذلك لأن الفرد سابق على المجتمع وأساس وجوده وكان يتمتع بحقوق طبيعية، ثم نشأ المجتمع السياسي من أجل تأكيد هذه الحقوق وحمايتها، لهذا يجب أن يتركز دور السلطة في الدولة على هذا الهدف، وألا تخالف العقد الذي بمقتضاه اتفق أولئك الأفراد على إنشاء هذا المجتمع السياسي.

أما من الناحية الاقتصادية: فقد كان نشأة المذهب الفردي على يد مدرسة الطبيعيين، واتخذ أنصار المذهب الفردي من شعار الطبيعيين «اتركه يعمل، اتركه يمر» شعارًا لهم. فالطبيعيون وجدوا أن تدخل الدولة في الأنشطة الاقتصادية خروج عن الطبيعة، ومن واجبها أن تترك الأعمال الاقتصادية تسير سيرها الطبيعي

---

(١) انظر: «الحرية الفردية في المذهب الفردي»، د. جلّول شيتور (ص١٣٨).

لاعتقادهم بوجود نظام طبيعي يقوم على قواعد ثابتة ومطلقة مُستمَدَّة من العناية الإلهية - وليست من وضع الأفراد- يسري مفعولها دون تدخل الإنسان، فكل شخص حر في أن يمتلك ويعمل ما يشاء، وعلى الدولة أن تقوم بتقرير وإعلان القوانين الطبيعية ومراعاة احترامها، لا تغييرها وإدخال التعديلات عليها[١].

فالمبادرة الفردية هي أساس المصلحة الاقتصادية، لذلك لا يرجع تحسين المجتمع إلى تقديرات الحكومة، وإنما للغرائز الطبيعية للفرد في الميدان الاقتصادي، والتبرير الحقيقي للدولة يتبلْوَر في الحماية التي توفرها لهذا الدافع الفردي.

وعلى إثر ذلك ظل الليبراليون في القرن الثامن عشر والتاسع عشر في صراع بين متطلبات الفرد ومتطلبات المجتمع، وبدت الدولة شرًا لابد منه، ويجب أن يُقيَّد نشاطها إلى أقصى حدٍ، لذلك يقول «هوريو»: «إن فلاسفة القرن الثامن عشر ورجال الثورة الفرنسية كانوا يرون أن الإنسان خيِّرٌ بطبيعته، والمؤسسات الاجتماعية هي الفاسدة، ويكفي إذًا أن نحرر الإنسان من المؤسسات القائمة، وأن نعطيه أقصى حد من الحرية، وأن نمنحه أكبر قدر من الثقة؛ حتى نحصل على نظام اجتماعي كامل»[٢].

وأما الناحية الخُلُقية فيلخص الفيلسوف «كانت» نظريته الفردية للأخلاق بقوله: «إن الأخلاقية تنحصر في معاملة الأفراد كغايات»[٣]، ويقصد

---

(١) انظر: «مبادئ النظم السياسية»، محمد رفعت عبد الوهاب (ص٢٤٨)، و«حقوق الإنسان وحرياته الأساسية»، هاني الطعيمات (ص٨٦).

(٢) «القانون الدستوري والمؤسسات السياسية»، أندري هوريو، ترجمة: علي مقلد وآخرون، (١/ ١/ ٨٥).

(٣) نقلًا عن «تطور الفكر السياسي من الاشتراكية إلى الليبرالية الجديدة»، عدنان السيد (٤/ ٨٩).

من ذلك تكريس مفهوم الفردية والأنا، وأن الإنسان يسعى جاهدًا لتحقيق رغباته الطبيعية، وكلما كان أكثر تحقيقًا؛ كان أكثر تحقيقًا لتلك الغاية.

يقول «ستيفن لوكس» في كتابه «الفردية»: «فالمذهب الأنوي في الأخلاق هو ذلك المذهب الذي يُسلِّم بالمبادئ الأخلاقية بوصفها مبادئ فردية على نحو قاطع»[(١)].

وعليه فإن مفهوم الحرية الفردية مرتبطة بمفهوم سياسي واقتصادي وأخلاقي معين، وفكرته الرئيسية هي أن الأفراد يجب ألَّا يعتمدوا إلا على أنفسهم من أجل تحقيق مصائرهم، أما الدولة فمهمتها محدودة، وفي هذه الصورة الفردية تصبح الحريات وكأنها إمكانات أو طرق مقترحة أمام وسائل ومبادرات الفرد.

ثانيا: الفردية الحديثة:

جاءت الفردية-كما يراها مُنظِّرُوها- لإعلاء استقلال الفرد بذاته، من خلال تعبير كل فرد عن رؤيته الخاصة، التي تمثلت في حرية الفكر والتعبير والملكية والانتخاب، وهذا الفرد هو الذي يعنيه «رالف إمرسون» في مقالته «الاعتماد على النفس»، حيث يقول مخاطبًا الفرد: «إن العبقرية هي أن تؤمن برأيك، وأن تعتقد أن ما هو يقيني في نفسك إنما هو يقيني للناس جميعهم»[(٢)].

وقد أراد «إمرسون» أن الفرد مُعبِّر عن الإنسانية، وهو أداة نجاح لنفسه وللمجتمع، وتقوم هذه الرؤية الجديدة للفردية على أساس غير الأساس الأناني

---

(١) نقلًا عن «الليبرالية إشكالية مفهوم»، د. ياسر قنصوة (ص٦٥).

(٢) نقلًا عن «مفهوم الليبرالية عند جون ديوي»، ياسر قنصوة (ص١٦٥).

النفعي، وهذا الأساس الذي تقوم عليه هو اعتقاد وِحْدَة الوجود في الإنسان؛ لأن الله - تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا- موجود في روح الإنسان، ولهذا فالفرد متعالٍ على الطبيعة، وهو فوقها ومرتفع عليها[1].

وهذه الفردية الجديدة المنطلقة من الإنسان والمتعالية على الطبيعة نشأت في الولايات المتحدة الأمريكية مرتبطة بالفكر المتعالي البرجماتي، وهي مختلفة عن الفردية التقليدية اختلافًا كبيرًا.

فالفردية الجديدة لا تعتقد بأن هناك حالة طبيعية للإنسان تستبطن الفردية، وأنها تظهر بشكل تلقائي عند انعدام الإكراه كما يتصوره الاتجاه التقليدي. ولكنها ترى أن الفردية تتكون من خلال العمل، وثقة الإنسان بقدراته، والتحرر من قيود العالم الطبيعي، والتعالي عليه، واستشعار القدرة على فعل أي شيء بثقة تامة[2].

وهذا التَّغير من الفردية القديمة إلى الفردية الجديدة فرضته ظروف مادية جديدة، وهي تطور الصناعة المذهل، والسيطرة على وسائل التقنية، وقد أدى ذلك لطمس صورة الفردية القديمة لتظهر صورة جديدة للفردية فرضتها المعطيات الجديدة، والهيمنة الرهيبة للمادية[3].

وتشترك الفردية الجديدة مع التقليدية في مادية الحضارة الغربية، وخُلُوِّها من القيم الأخلاقية الحقة، ونَبْذ الدين، وبناء الروابط الاجتماعية على المصلحة الذاتية الخاصة وغيرها، ولكن الفردية الحديثة تزيد عليها بأمور متعددة، منها:

---

(١) المصدر السابق (ص١٦٥).

(٢) «حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها»، د. عبد الرحيم السلمي (ص ١٥٠).

(٣) انظر: «الفردية قديمًا وحديثًا»، جون ديوي(ص١٧-١٨)، و«حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها»، د. عبد الرحيم السلمي (ص١٥١) بتصرف.

١- ربط القيم الإنسانية بالعمل، واعتباره القيمة الصحيحة، والأمر المميز بين الفضائل والرذائل، وهذا التصور المادي يعلي من قيمة الرأسمالية باعتبارها فئة ناجحة من الناحية العملية، واعتبار أخلاقها الناتجة عن العمل هي الأخلاق الفاضلة.

٢- تبرير التغير الفكري بالآلة الصناعية، وأن التحديث الصناعي يقتضي تحديثًا فكريًا مطردًا، وأن مواكبة المتغيرات تقتضي تغيرًا في الفكر، وهذا يدل على أنه لا يوجد ثبات في الفكر لأنه مقرون بأمر متغير.

٣- تعالي وغرور من يملك تطورًا تقنيًا؛ على أساس أنه فرد متطور، ولهذا فإن محافظته على تعاليه وغروره يستلزم استعمال كافة أوجه القوة لبقائه على تميزه.

وهذه الصفات موجودة في الحياة الأمريكية، وهي التي تمثل الفردية الجديدة، وهي تجمع أنانية الفردية التقليدية، وتزيد عليها البُعد العملي المادي[1].

مناقشة الفردية:

المتأمل في الاتجاه الفردي يرى أنه تحفه انتقادات كثيرة، منها:

١- أنه جعل الغاية من الوجود تحقيق مبدأ اللذة للفرد، وأن الفرد هو قطب الرَّحَى في الوجود، وهذا يخالف الحكمة الإلهية من إيجاد الخلق وهي تحقيق عبودية الله تعالى، حيث يقول سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

---

(١) انظر: «حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها»، د. عبد الرحيم السلمي (ص ١٥٢-١٥٣).

٢- يُلْحَظ على المذهب الفردي اهتمامه بالجانب المادي من الإنسان، وإهماله للجانب الروحي، مما أوقع أصحاب المذهب الفردي في تناقضات كبيرة؛ ذلك أن المجتمعات الغربية بعد ممارستها لصور اللذة الفردية المتعددة – وبالأخص في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر- أصيب هذا الفرد بصدمات نفسية كبيرة جعلته يبحث عن الخلاص، فبعضهم سلك طريق العودة للدين والمذاهب الروحية، وبعضهم سلك الطريق الأصعب وهو محاولة التخلص من وجوده! وسبب ذلك إخفاق المذاهب الفردية في تحقيق الموازنة بين حاجة الفرد لتحقيق الرضا الروحي والبدني، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤].

٣- الاهتمام بالفرد على حساب المجتمع، وافتعال صراع محموم بينه وبين المجتمع الذي يعيش فيه، مما أوجد نوعًا من الرِّيْبة والشك بين تلك العلاقة الحتمية، حتى اختزلها بعضهم، بقوله: «مصلحة المجتمع كَكُلٍ إنما تتحقق حتمًا من خلال عمل كل فردٍ فيه على تحقيق مصلحته الخاصة»(١)، وهل يُعقَل أن يكون الناس كلهم أخيارًا بحيث لا تتقاطع مصالحهم البتة؟!

٤- النظرة المثالية للفرد، وكأن الأفراد جميعًا على اختلاف أجناسهم وألوانهم ينزعون إلى الخير، ولا يقترفون غيره؛ مما أوقع رواد المذهب الفردي في أزماتٍ واقعية ألزمتهم بقبول تسلّط الدولة على تلكم الحرية المزعومة-وخاصة بعد القرن السادس عشر- بحيث تحد من جنوحها، وتضبط مسارها.

---

(١) «الليبرالية في الفكر العربي»، د. حسين معلوم (ص١٢).

٥- إن المذهب الفردي ينفي عن الإنسان كل هدف أبعد من هدف المصلحة المباشرة القريبة، وينفي عن الإنسان عنصر التَّطلع إلى ما هو أبعد من الذات.

٦- هذا المذهب يهبط بالإنسان إلى مستوى الحيوان الذي يبحث عن إشباع غرائزه، وتنعدم لديه تلك المعاني النبيلة من إيثارٍ وكرمٍ إلا ما يخدم ذاته.

٧- دعوى أصحاب المذهب الفردي أن غاية الفردية هي: المساواة بين الأفراد في الحرية والحقوق، هو ضرب من الوهم والخيال، ومخالف للواقع، إذ أدى تطبيق المذهب الفردي إلى تقسيم المجتمع إلى طبقات، وأصبح صاحب رأس المال يتحكم بالعامل، وصاحب الأرض يستغل الفلاح مما نتج عن ذلك انفجار طبقة العمال (البروليتاريا[1]) وتولَّد بعد ذلك المذهب الاشتراكي، الذي تهدر فيه إنسانية الإنسان.

المطلب الثاني: الحرية:

لقد نال مفهوم الحرية من الغموض ما ناله مصطلح الفردية؛ وذلك لأن مبدأ الحرية – في المجتمعات الغربية – كان نتاج القوى الثائرة على سلطتي الدين والسياسة إبَّان القرن السادس عشر، وتلك القوى على اختلاف أطيافها وأعراقها

---

(١) البروليتاريا (من اللاتينية proletarius) هو مصطلح ظهر في القرن التاسع عشر، فمع تطور وسائل الإنتاج وتسلط أرباب الأموال على الطبقة الكادحة تحصل الثورة الأولى، وهي ثورة البروليتاريا (أو الطبقة العاملة) ويعتقد ماركس أن هذه المرحلة لابد من أن تحدث في التاريخ حيث ينقلب العمال على أصحاب رؤوس المال، ويتساوى الناس جميعًا، ويصبح المجتمع مجتمعًا اشتراكيًّا، لا تكون فيه إلا طبقة واحدة وهي الطبقة الكادحة، وتعم العدالة الاجتماعية بين الناس والمساواة؛ وهنا يبدأ الناس بالسعي نحو تحقيق الشيوعية. انظر: «المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها»، د. عبد الرحمن عميرة (ص١١٥ وما بعدها).

كانت تصبوا إلى الحرية التي نازعتها إياها سلطتي الدين والسياسة عبر قرونٍ طويلة، ولما كانت هذه القوى الثائرة متباينة في تصوراتها وأعراقها نتج عن ذلك تباينٌ في تحديد معنى الحرية الشمولي، وعلى إثر ذلك يقول «إيزايا برلين» في كتابه «حدود الحرية» بأن لها أكثر من مِائتي تعريف[1].

وقد بذل بعض الفلاسفة الماديين جهدًا للوصول إلى تعريف يحدد معنى الحرية إلا أن تلك التعاريف تظهر حجم المعضلة التي تعترضهم؛ حيث أنهم لم يتفقوا على تعريفٍ محدد.

يقول المستشرق الألماني «فرانز روزنتال»: «وخلال صيرورتها عبر التاريخ استطاعت الحرية أن تعتق نفسها من إطار قيود التعريفات، وأن تتطور إلى واحدٍ من المصطلحات المجردة القوية التي ليست لها وجود خارجي يمكن تحديده ... لاقت محاولات تحديد الحرية بمصطلحات جامعة فشلًا ذريعًا كما كان متوقعًا»[2].

فالمفارقة التي نلاحظها هي أن فلاسفة الليبرالية المعاصرين ومفكري الأنوار[3] قبلهم المنشغلين بتجسيد الحرية عبر تقنينها، لم يجدوا مسلكًا لتعريفها إلا انتهاج المقاربة النفسية!

---

(١) انظر: «حدود الحرية»، آيزا برلين (ص١١).

(٢) «مفهوم الحرية في الإسلام»، فرانز روزنتال (ص١٨-٢٠).

(٣) حركة فكرية ظهرت في القرن الثامن عشر الميلادي في فرنسا وانجلترا على الخصوص، اتخذت من الإنسان وحقوقه أساسًا للمواضيع المتناولة سواء في الميدان العلمي أو السياسي أو الإنساني، وجعلت العقل حكمًا لرفض أو قبول أي شيء كان، والعمل على إنشاء مجتمع جديد يقوم على الديمقراطية والحرية والمساواة. انظر: «تاريخ الفكر الأوروبي الحديث»، رونالد سترومبرج (ص١٦٩) وما بعدها.

فـ«موريس فلامان» مثلًا عند استخلاصه للحقوق الطبيعية والمدنية استدرك أنها رغم تعددها وكثرتها لا تستنفذ دلالة المفهوم، ولا تستوعب سعته[١].

ويتلخص من هذا أن مبدأ الحرية يتفق عليه جميع فلاسفة الغرب، لكنهم يتباينون في تحديد إطارها، كما أن تعاطي العقل الغربي مع مفهوم الحرية اتسم بسِمَتين بارزتين، وهما:

الأولى: تحييد الدين وعزله عن التدخل في مفهوم الحرية.

الثاني: تغليب الحرية الفردية وطغيان الجانب الفردي في حدودها وطبيعتها.

ومن الصعوبة بمكان أن نصل إلى تعريف جامع مانع لمفهوم الحرية في الفكر الغربي لكن من الممكن أن نصل إلى مقاربة وصْفِيَّة لهذا المفهوم، فالحرية: من الناحية الفكرية تعني حرية الاعتقاد والتفكير والتعبير، ومن الناحية الاقتصادية تعني حرية الملكية الشخصية، وحرية الفعل الاقتصادي المنتظم وفق قانون السوق، وعلى المستوى السياسي تعني حرية التجمع وتأسيس الأحزاب، واختيار السلطة ... وهكذا نلاحظ أن مقولة الحرية لا تشكل فقط مبدأ من جملة مبادئ، بل هي مُرْتَكَزٌ لغيرها من المبادئ[٢].

---

(١) نقلًا عن «نقد الليبرالية»، د. الطيب بوعزة (ص١٤٠).

(٢) انظر: «مفهوم الحرية»، عبد الله العروي (ص٦٨).

أنواع الحرية

وتنقسم الحرية إلى قسمين أساسيين:

⊠ **أولا: الحرية الإرادية:**

ونلحظ أن موقف الفلاسفة الغربيين من مبدأ الإرادة والاختيار قد وقع فيه تباين كبير؛ حيث أنهم انقسموا حيال ذلك إلى قسمين:

١- النزعة القدرية: وتعني أن الفرد يمتلك الحرية الكاملة والمطلقة في تصرفاته واختياراته، يقول «بوسيّة»: «إنني بحثت في ذاتي عن السبب الذي يدفعني إلى العمل، فإنني أشعر بأنه ليس هناك من علة لأفعالي سوى حريتي، ومن ثَمَّ فإنني أشعر بوضوح بأن حريتي إنما تنحصر في مثل هذا الاختيار»[١].

وذهب الفيلسوف «هيوم» إلى هذا المذهب، حيث يقول: «ليس بوسعنا إذن أن نعني بالحرية سوى القدرة على الفعل أو عدم الفعل، وذلك حسب تحديد إرادتنا، أي: أننا إذا اخترنا السكون سَكَنَّا، وإذا اخترنا الحركة تحركنا»[٢].

فهذه النزعة تذهب إلى أن الفرد هو المالك الحقيقي لتصرفاته دون أدنى تأثير عليه من أي قوة سوى ذاته فقط.

٢- النزعة الجبرية: وتعني أن حرية الإنسان مقيدة تقييدًا ذاتيا، وأنه لا إرادة له في الحقيقة، وأن الفرد مجبور بعِلّة خارجية مؤثرة فيه لا يستطيع الفعل إلا من

---

(١) نقلًا عن «مشكلة الحرية»، زكريا إبراهيم (ص٢٠).

(٢) نقلًا عن «المجلة العربية للعلوم الإنسانية»، عدد(٧٧)، (ص٥٥-٥٦).

خلالها، يقول «سبينوزا»: «إن النفس لا تنطوي على أية إرادة حرة أو مطلقة، بل هي مجبورة على أن تريد هذا أو ذاك بمقتضى علة هي مشروطة بعلة أخرى، وهذه العلة بدورها محددة بعلة أخرى، وهكذا إلى ما لا نهاية»(١).

ويعتنق «فولتير» هذا الرأي قائلًا: «إننا عجلات في آلة كبرى، وعقولنا تفكر كما لو كانت حرة؛ لأن هذا الشعور بالحرية هو نفسه عجلة في تلك الآلة»(٢).

ونلحظ على هذه النزعة التصريح بأن الفرد الإنساني فاقد لأي قدرة على التأثير، والمؤثر حقيقة هي قوة من الخارج.

ثانيًا: الحرية المدنية:

الحرية المدنية تعني أن الفرد حرٌ في أفعاله، ومستقلٌ في تصرفاته دون أي تدخل من الدولة أو غيرها، فوظيفة هذه الدولة حماية هذه الحرية وتوسيعها، وتعزيز الحقوق، واستقلال السلطات، وأن يُعْطَى الأفراد أكبر قدر من الضمانات في مواجهة التعسف والظلم الاجتماعي.

وهذه الحرية هي التي اعتنى بها الفكر الليبرالي باعتبارها موضوعًا سياسيًا يتعلق بالعلاقة بين الفرد والدولة، وعلاقة الفرد بالآخرين، والحرية بهذا الاعتبار ذات طابع عملي واقعي(٣).

---

(١) نقلًا عن «مشكلة الحرية»، زكريا إبراهيم (ص٥٠).

(٢) نقلًا عن «مشكلة الحرية»، زكريا إبراهيم (ص٥٠-٥١).

(٣) انظر: «حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها»، د. عبد الرحيم السلمي (ص ١٢٧).

وهذه الحرية هي مناط البحث في الفكر الليبرالي، فالليبرالية مذهب سياسي واقتصادي يسعى لتعميق الحرية الاجتماعية، وليس مذهبًا غيبيًا يناقش موضوع القضاء والقدر، ومدى قدرة العبد على فعله.

وتنقسم الحرية المدنية إلى اتجاهين:

الاتجاه السلبي: حيث تُفهم الحرية في التصور الليبرالي في معناها السلبي أنها تدل على قدرة الشخص على الفعل أو عدم الفعل، وانعدام العوائق التي من شأنها أن تأثر على حريته في الاختيار.

ويكاد يحصل الإجماع لدى الليبراليين على فهم الحرية بالمعنى السلبي، وهم انطلاقًا من ذلك يحدّون مشروعية الدولة بمدى احترامها للحرية السلبية حسب التصور الليبرالي. فليست الحرية مثل الحقوق الطبيعية الأخرى حصيلة أو ثمرة القوانين، بل إن القوانين ليست إلا وسائل تنظيمية توظّفها السلطة العامة من أجل حماية الحقوق.

إن السلطة السياسية المشروعة هي تلك التي تشرِّع قوانينًا لا تنتهك الحرية بل تحميها و تصونها.

يقول «فريدريك هايك»: «إن الحرية هي الحالة التي يكون فيها الإنسان غير خاضع للقَسْر مِن قِبَل إرادة الآخر المستبدة. إن الحرية الليبرالية تختلف بصورة قاطعة عن الفَوْضوية، وينبغي إزالة كل العوائق الإنسانية التي تحد من المساعي الفردية لتحقيق أهدافها في ظل القانون»[1].

---

(١) نقلًا عن «الليبرالية إشكالية مفهوم»، ياسر قنصوة (ص١١).

وبهذا يمكن تصور هذا المفهوم للحرية بأنه منع أي سلطة حكومية أو غيرها من التدخل في حرية الفرد إلا في القانون المنظم لحريات الأفراد، وهذا المنع يجعل السلطات ليس بوسعها تحقيق مآربها الخاصة، ويجب أن يحتوي الدستور على هذا المفهوم ليمنع المشرِّع من ممارسة القَسْر بوضع قيود قانونية استبدادية على حرية الإنسان.

وهذا المفهوم يركز على منع الآخرين من التدخل، لكنه يترك حرية الفرد دون توجيه لها؛ لأن هذا التوجيه يفتح بوابة التدخل الاستبدادي، ويكتفي بالفعل التلقائي المرسل للإنسان[١].

إذن العلامة الفارقة في هذا الاتجاه عن غيره هي: انعدام القَسْر والإكراه، وانتفاء العبودية والتقييد لحرية الأفراد، وبهذا يكون الفعل الإنساني تلقائي وغير مخططٍ له.

⊠ الاتجاه الإيجابي:

يرى أنصار هذا الاتجاه أن المواطن ليس مجرد فرد يتمتع بحقوق طبيعية (الحرية) تلتزم السلطة العامة باحترامها وحمايتها، بل هو شخص يشرّع القوانين ويلتزم بطاعتها ومراعاتها، وبذلك فقط يكون حُرًّا، ولا تكون الحرية نقيضًا للقانون بل هي حقيقته و جوهره.

يقول «جون لوك»: «إن غياب القانون يعني غياب الحرية»[٢]، ولعل هذا منبثق من فلسفتهم القائلة بأن: القانون في حقيقته منبثق عن كل فرد؛ ذلك لأن

---

(١) انظر: «حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها»، د. عبد الرحيم السلمي (ص ١٣١).
(٢) نقلًا عن «حدود الحرية»، آيزا برلين (ص٤٥-٤٦).

الأفراد هم من رشحو النُّوَّاب الذين قاموا بوضع الأنظمة والقوانين نيابة عنهم، وبالتالي مارس الشعب حريته في ضبط حريته.

ويلخص هذه الدعوة «برلين» بقوله: «إن الأهداف العقلانية لطبيعتنا الحقيقية يجب أن تتوافق، أو أن تُجبَر على ذلك مهما أطلقت ذاتنا الساذجة، الجاهلة، العاطفية من صرخات الاحتجاج ضد هذه الدعوة. إن الحرية لا تعني القيام بعمل أحمق أو خاطئ أو لا عقلاني، كما أن إجبار الذات التي ترغب بالتجربة والاختيار (المحاولة والخطأ) على أن تنهج السلوك القويم ليس استبدادًا وإنما هو تحرير»[١].

ويظهر الفرق بين الاتجاهين مع اتفاقهما على مبدأ الحرية كمُكَوِّن رئيس من خلال:

○ تركيز المفهوم السلبي على عدم التدخل الخارجي على أنه معيار التحرر، بينما يعتمد المفهوم الإيجابي على تنظيم وتقنين الفعل الإنساني بما يحقق مصلحته الخاصة والعامة.

○ يرى الاتجاه السلبي أن ممارسة الإنسان لأعماله وتصرفاته بتلقائية ومن غير تخطيط لها توصله إلى البناء الحضاري بشكل تراكمي، في حين يذهب الاتجاه الإيجابي إلى ضرورة التخطيط لكل شيء للوصول إلى البناء الحضاري.

---

(١) «حدود الحرية»، آيزا برلين (ص٤٦).

مناقشة الحرية:

من خلال ما تقدم يمكن أن أسجل الملاحظات التالية:

١ - أن الثورة الأوربية لم تقف عند مبدأ عزل الدين عن الحياة السياسية، بل تجاوزته إلى ملاحقة الدين وتجريمه، وتجريم كل مَن يدعو إلى تعاليمه، وفي المقابل قامت بتمجيد الإنسان والمحافظة على استقلاليته، وتحطيم سائر القيود عنه سواء أكانت دينية أم أخلاقية أم اجتماعية، وعدم تقييده بشيء سوى القانون الذي وضعه عبر اختيار من يمثله في المجالس التشريعية.

وهذا بلا شكٍ أوقَعَ سائر المذاهب الغربية الداعية إلى الحرية في تناقض ظاهر؛ ذلك أنها غلت في إشباع الجانب المادي للإنسان في حين أضحى الجانب الروحي للإنسان فقيرًا، مما ترتب عليه انتشار ظاهرة الانتحار كخيارٍ للأزمات النفسية التي مُني بها أتباع تلك المذاهب.

وبسبب هذه الأخطار تعالت صيحات العقلاء من أبناء الغرب بوجوب التصدي لهذه الحرية (الزائفة) التي أزالت جميع ملامح الأخلاق والدين، كما أزالت ما تبقى من الإنسانية الغربية، فهذا «ستيوارت أودال»، يقول: «إن إنجيل الدمار هو الذي يقول لنا أن النمو هو التقدم»[١].

ويقول «دوبو»: «تعب الناس من هذا السباق المجنون للتغيير الدائم، وأُنْهِك البالغون، أما المراهقون فقد علا صراخهم أوقفوا هذا العالم؛ فنحن نريد أن نخرج منه»[٢].

---

(١) انظر: «إنسانية الإنسان»، رالف بارتون بري (ص٢٣٠).

(٢) المصدر السابق، (ص٢٣٠).

وهذه نتيجة حتمية لمن ضل عن صراط الله المستقيم، فقد قال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه:١٢٤].

٢- إن دعوى أن الحرية حق طبيعي للإنسان نابع من طبيعته لا من سلطة أخرى - جعل الإنسان كفرد لا يدين للمجتمع بهذه الملكية، وبالتالي أوقع الأفراد في سباقٍ محموم لإثبات ذواتهم مبررين ذلك بحق الفرد في التملك. ولعل من المدهش أن يكون «جون لوك» الرائد المعترف به في التفكير الليبرالي كمؤسس للديمقراطية الليبرالية هو نفسه من أبرز المؤكدين على مبدأ الحرية، ومع ذلك يعد «جون لوك» من كبار تجار الرقيق في غرب أوربا! ولعل سبب تبَنِّي «لوك» لهذه النظرة في الحرية هو حرصه على إيجاد إيدلوجية بين سعيه للحصول على الثروة وبين حصوله على الطمأنينة الإيمانية - كونه رجلا متدينًا- تجاه هذا السعي بإيجاد مبرر أخلاقي[1].

٣- إن الحرية الفردية التي تنادي بها الليبرالية ليس المقصود بها الفرد الإنساني عامة، بل الفرد المالك بمدلوله الاقتصادي، ويؤكِّد هذا الفهم الممارسة العملية لرواد الحرية الفردية؛ حيث أنهم لم يقصدوا بهذا المصطلح إلا الأفراد المنتجين أصحاب الثروة، وخذ على سبيل المثال «فولتير» من كبار المنظرين لمبدأ الحرية الفردية يتحدث عن حق الشعوب الفقيرة في التعليم، ويقول في كتابه «الرسائل الفلسفية»: «يبدو لي من الضرورة أن يوجد فقراء جاهلون، فالتعليم

---

(١) للاستزادة راجع «الليبرالية إشكالية مفهوم»، د. ياسر قنصوة (ص١٥٦-١٥٧)، «نقد الليبرالية»، د. الطيب بوعزة (ص ٧٠، ٨٦، ٩٣) بتصرف.

ينبغي ألا يكون موجهًا إلى اليد العاملة، ولكن يجب تعليم البورجوازي الجميل وساكن المدن، أما عندما يهتم الرعاع بالتفكير فعندئذ سيضيع كل شيء»[١].

ويضيف «مونتسكيو» المنظر الليبرالي للحقوق في كتابه «روح القانون»، قائلًا: «دائمًا يوجد في الدولة أفراد متميزون إما بالنسب، أو الثروة، أو بالشرف، فإذا جرى تسويتهم بعامة الشعب، ولم يعطوا سوى صوت واحد مثلهم مثل الآخرين، فإن هذه الحرية المعمّمة تصبح بالنسبة لهم رقًّا، لذا لابد أن يكون لهم حق في التشريع يناسب ما يمتلكون من امتيازات»[٢].

وليس هذا الاتجاه مقتصرًا على فترة تاريخية مرت بها الليبرالية وانقضت، بل هو منهج مُتَّبَعٌ ألقى بظلاله على ما بعده من سنوات ومواقف، فممارسات القوى العظمى المعاصرة – والتي تَدَّعِي الليبرالية – تجسد هذه النظرة سواء في العراق، أم فلسطين، أم في غيرهما من المناطق الملتهبة، والتي اتضحت الأسباب الحقيقية من ورائها.

٤- الازدواجية بين التنظير والواقعية في مذهب الحرية؛ فأهم قيم النهضة الأوربية: الحرية والحيوية، وهما معنيان ساميان وقاتلان في آن واحد، ويأتي سموهما من كونهما الأداتين اللتين صنعتا الروح النهضوية الأوربية، وبلغتا مع مرور الزمن مبلغًا سيكلوجيًا وعمليًّا جعلهما يفيضان عن حاجة أوربا والبيئة المحلية باتجاه الجنوب نحو أفريقيا، وباتجاه الشرق نحو آسيا، وبدأ تاريخ

---

(١) نقلًا عن «نقد الليبرالية»، د. الطيب بوعزة (ص٧٣).

(٢) المصدر السابق (ص٧٣).

الاستعمار، مما نتج عنه أن الحرية والحيوية أصبحتا نعمة لأوربا، ونقمة على الآخرين[1]، في حين المفترض أن الحرية الليبرالية تُعَظِّم حرية الجانب الإنساني بعامة، وليس العنصر الأوربي فقط!

٥- هناك فارق جوهري بين نظرة الإسلام إلى حقوق الإنسان ونظرة الحضارة الغربية إليها، فالحضارة الغربية حققت أعظم إنجازاتها في هذا المجال بتحويل حقوق الإنسان من حقوق طبيعية إلى مطالب سياسية، بينما يجعلها الإسلام - في نصوصه الثابتة - واجبًا ربانيًا؛ إذ الشريعة الإسلامية تنظر إلى حقوق الإنسان على أنها فرائض إلَهِيَّة وواجبات شرعية، أما الحضارة الغربية فتراها مجرد حقوق. وأحد الفروق الجوهرية بين الحق والواجب أن الأول قابل للتنازل عنه وممارسته ليست ملزمة، بينما الثاني لا يستطيع صاحبه إسقاطه، ويأثم إن فرط فيه أو تنازل عنه.

المطلب الثالث: العقلانية:

تعد العقلانية من الأصول المشتركة بين المذهب الليبرالي وغيره من المذاهب الوضعية الغربية، وتعني العقلانية عند أربابها: القول بأولية العقل؛ ويراد بها عدّة معانٍ[2]:

١- أن كل موجود فَلَه عِلّة في وجوده، فلابد من تفسير يقبله العقل لكل شيء، وغُلاة هذا الرأي لا يقبلون التفسيرات الغيبية حتى وإن جاء بها الوحي.

---

(١) «الليبرالية الجديدة أسئلة في الحرية والتفاوضية الثقافية»، د. عبد الله الغذامي (ص٦٠-٦١) بتصرف.

(٢) انظر: «المعجم الفلسفي»، جميل صليبا (٢/ ٩٠) بتصرف، و«مذاهب فكرية معاصرة»، د. محمد قطب، (ص٥٠)، و«موسوعة المسيري»، المجلد الأول، المفردات، (العقل).

٢-المعرفة تنشأ عن المبادئ العقلية القبلية الضرورية لا عن التجارب الحسية، فالعقل يكون مزودًا بتلك المبادئ التي يستطيع بها تكوين المعارف، وهذا هو المذهب العقلي عند «ديكارت» ومن تبعه مثل «هيجل»، ويقابله المذهب التجريبي الذي يُنكر وجود تلك المبادئ، ويقول بأن العقل يكون صفحة بيضاء.

٣-الإيمان بالعقل، وبقدرته على إدراك الحقيقة.

ويعود هذا الاعتداد بقدرات العقل، إلى أصلٍ فكري مفاده: قوانين العقل مطابقة لقوانين الأشياء الخارجية، وبهذا فهو غير محتاج لأي عون خارجي، ويستبعد غلاتُهم الوحي، فالحقيقة يكشفها العقل ولا حاجة عندهم للوحي، وهذا المعنى هو الذي تبناه أهل التنوير الغربي ثم الاتجاهات الإلحادية في الفكر الغربي[1].

ويعد «ديكارت» من أوائل فلاسفة عصر النهضة الغالين في مبدأ العقل، حتى أُطلق عليه أبو الفلسفة الحديثة، يقول «جون لويس» في شأنه: «إن (ديكارت) أحل البحث الحر محل الخضوع للسلطة، والبرهنة العقلية محل الإيمان، وهو بذلك مؤسس فلسفة التنوير»[2].

وقد نادت الفلسفة الديكارتية بتمجيد العقل، وأن المعرفة اليقينية لا تكون إلا عن طريق العقل وحده، حيث يقول ديكارت في كتابه «مقال عن المنهج»: «العقل هو أحسن الأشياء توزّعًا بين الناس إذ يعتقد كل فرد أنه أوتي منه الكفاية،

---

(١) انظر: «حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها»، د. عبد الرحيم السلمي (ص١٥٣) وما بعدها.

(٢) «العلم والدين في الفلسفة المعاصرة»، أميل بوترو (ص١٩).

حتى الذين لا يسهل عليهم أن يقتنعوا بحظهم من شيء غيره ليس من عادتهم الرغبة في الزيادة على ما لديهم منه، وليس براجح أن يخطئ الجميع في ذلك، بل الراجح أن يشهد هذا بأن قوة الإصابة في الحكم، وتمييز الحق من الباطل، وهي في الحقيقة التي تُسمَّى بالعقل أو النطق تتساوى بين كل الناس بالفطرة، وكذلك يشهد اختلاف آرائنا؛ لا ينشأ من أن البعض أعقل من البعض الآخر»[1].

أما «جون لوك» فقد خطا خطوة أبعد من «ديكارت» بأن طالب بإخضاع الوحي للعقل عند التعارض، قائلًا: «من استبعد العقل ليفسح للوحي مجالًا فقد أطفأ نور كليهما، وكان مثله كمثل من يقنع إنسانًا بأن يفقأ عينيه، ويستعيض عنهما بنور خافت يتلقاه بواسطة المِرْقَب من نجم سحيق»[2].

وقد تكونت علاقة الليبرالية بالعقلانية عبر ثلاث مراحل:

١- مرحلة التحديث: واتسمت بسيطرة الفكر النفعي على جوانب الحياة، من خلال الزيادة المطردة في الانتاج المادي، ولذلك ظهرت الدولة القومية العلمانية في داخل أوربا والاستعمار في الخارج لضمان هذا الهدف، وانعكس ذلك على الأخلاق والأسرة.

٢- مرحلة الحداثة: وهي استمرار للمرحلة السابقة، مع تعميق آثار الفردية النفعية، وفي هذه المرحلة واجهت الدولة القومية تحديات من جرَّاء حركة السوق غير المنضبط والخالي من القيم، وتبدل الاستعمار المباشر باستعمار سياسي واقتصادي وثقافي، واتجه السلوك العام نحو الاستهلاك.

---

(١) «مقال عن المنهج»، لديكارت (ص٣-٤).

(٢) نقلًا عن «قصة النزاع بين الدين والفلسفة»، د. توفيق الطويل (ص٢١٤).

٣- مرحلة ما بعد الحداثة: حيث الاستهلاك الهدف النهائي من الوجود ومحركة اللذة الخاصة، واتسعت معدلات العولمة لتتضخم مؤسسات الشركات متعددة الجنسيات والمنظمات غير الحكومية الدولية، وتتحول القضايا العالمية من الاستعمار والتحرر إلى قضايا البيئة، والإيدز، وثورة المعلومات. وتضعف المؤسسات الاجتماعية الوسيطة مثل الأسرة لتحل محلها تعريفات جديدة للأسرة: رجلان وأطفال، امرأة وطفل، امرأتان وأطفال.. ؛ كل ذلك مُستَند على خلفية من غياب الثوابت والمعايير الحاكمة لأخلاقيات المجتمع والتطور التكنولوجي الذي ينتج بدائل لم تكن موجودة من قبل في مجال الهندسة الوراثية[1].

وبعد ذلك أصبحت الليبرالية العقلانية: «رؤية شاملة للواقع تحاول بكل صرامة تحييد علاقة الدين، والقيم المطلقة، والغيبيات بكل مجالات الحياة، ويتفرع عن هذه الرؤية نظريات ترتكز على البعد المادي للكون، وأن المعرفة المادية المصدر الوحيد للأخلاق، وأن الإنسان يغلب عليه الطابع المادي لا الروحي»[2]، ومما يؤكد هذه الرؤية الارتباط القوي بين الليبرالية والرأسمالية[3].

---

(١) انظر: «حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها»، د. عبد الرحيم السلمي (ص١٥٧-١٥٨)، و«العلمانية»، د. عبد الوهاب المسيري، (شبكة إسلام أون لاين)، مقال بعنوان: مفاهيم ومصطلحات.

(٢) «العلمانية»، د. عبد الوهاب المسيري، (شبكة إسلام أون لاين)، مقال بعنوان: مفاهيم ومصطلحات.

(٣) للتوسع انظر: «صراع الحضارات»، د. جعفر إدريس (ص١٣٤) وما بعدها.

☒ مناقشة العقلانية:

من خلال ما تقدم تبرز عدة ملاحظات، وهي على النحو التالي:

١- أن العقل الإنساني برغم تعظيمهم من شأنه محدود وضعيف لمن تأمل في طاقاته وخبرها؛ لأنه مقيد بحواس الإنسان وتابع لها في أحكامه، ويمكن أن يقع في الخطأ والخلل، وكما قال ابن القيم: «لاريب أن البصر يعرض له الغلط ورؤية بعض الأشياء بخلاف ما هي عليه، ويتخيل ما لا وجود له في الخارج، فإذا حكم عليه العقل تبين غلطه»[١]. ثم هو أيضًا مرتبط في أحكامه بحالات الإنسان النفسية والاجتماعية، يقول «ألكسي كاريل»: «من الواضح أن النشاط العقلي يتوقف على وجوه النشاط الفسيولوجي؛ فقد لوحظ أن التعديلات العضوية تتصل بتعاقب حالات الشعور، وعلى العكس من ذلك فإن حالات وظيفية معينة للأعضاء هي التي تقرر الظواهر السيكولوجية، ويعدل الكل المكوَّن من الجسم والشعور بالعوامل العضوية والعقلية أيضًا، فالعقل والجسم يشتركان معًا في الإنسان مثلما يشترك الشكل والرخام في التمثال، فالإنسان لا يستطيع أن يغير شكل التمثال دون أن يحطم الرخام»[٢].

وفي نَهْي النبي ﷺ للقاضي أن يحكم وهو غضبان خير دليل على تأثر العقل بالحالات النفسية للإنسان، فهو في تلك الحالة سيقضي بما يُجانب الصواب، مما يؤكد قصور العقل عن أداء مهمته في مطلق الأحوال، وقد اعترف بقصور العقل ومحدوديته كثير من علماء المسلمين وغير المسلمين.

---

(١) «بدائع الفوائد»، لابن القيم (٣/ ٢٠٠).

(٢) «الإنسان ذلك المجهول»، الكسي كاريل (ص١٦٥).

فهذا الفيلسوف «كانت» يقول: «يجب على العقل أن يقف في تصوره عند حد التجربة الحسية؛ إذ لا يمكن لأفكارنا أن تمتد إلى كُنْه الأشياء ولُبَابها إلى الأشياء في أنفسها. فإذا ما حاولنا أن نعرفها بنفس الوسائل التي تعرف بها الظواهر- أي: الزمان، والمكان، والسببية، وغيرها- تورطنا في التناقض والخطأ»(١).

ويقول الفيلسوف الإنجليزي «جون لوك»: «إن كل فكرة توجد في العقل إنما يكون أساسها راجعًا إلى الحواس، ومن تعطلت حواسه جميعًا أو إحداها فلا يمكن أن تتكون في ذهنه أية فكرة عن محسوسها، وبذلك فلن يكون هناك شيء في عقل الإنسان ما لم يكن من قبل في حواسه؛ إذ أن العقل عبارة عن صفحة بيضاء ليس عليها أي انطباع أو أي شيء سابق على خبرة الحواس»(٢).

٢- العقل في الإنسان كغيره من الصفات الكمالية، فهي وإن كانت كمالًا في حق الإنسان، إلا أن لها حدودًا لا تتجاوزها، وأقدارًا لا تتخطاها، فالإنسان ذاته مخلوق، وصفاته كذلك يعتريها ما يعتري المخلوق من القوة والضعف والخَوَر، والوجود والعدم.

والعقل جعل الله تعالى له حدًا – في إدراكه للأشياء – ينتهي إليه لا يتعداه، فلم يجعل له سبيلًا إلى الإدراك في كل مطلوب، ولو كان كذلك لتساوى مع العليم الخبير في إدراك جميع ما كان وما يكون وما لا يكون لو كان كيف يكون،

---

(١) نقلًا عن «قصة الفلسفة الحديثة»، أحمد أمين (١/ ٢٩١).

(٢) نقلًا عن «العقل والإيمان في الإسلام». د. صابر طعيمة (ص٢٨).

ولو كان العقل يدرك كل مطلوب لاستغنى الخلق به عن الوحي والنبوّات، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥][١].

والعقل وإن أدرك فإدراكه يكون لبعض المدرك، وهذا البعض فيه قصور وضعف: من غفلة ونسيان، أو جهل، أو عدم إحاطة إلى غير ذلك من أحوال الضعف والقصور.

يقول الأستاذ «سيد قطب»: «والمنهج الذي سار عليه القرآن – وهو المنهج الأقوم - أن يجيب الناس عما هم في حاجة إليه، وما يستطيع إدراكهم البشري بلوغه ومعرفته؛ فلا يبدد الطاقة العقلية التي وهبها الله لهم فيما لا ينتج ولا يثمر، وفي غير مجالها الذي تملك وسائله وتحيط به ... وليس في هذا حَجْر على العقل البشري أن يعمل، ولكن فيه توجيهًا لهذا العقل أن يعمل في حدوده، وفي مجاله الذي يدركه، فلا جدوى من الخبط في التّيه، ومن إنفاق الطاقة فيما لا يملك العقل إدراكه؛ لأنه لا يملك وسائل إدراكه»[٢].

ولتحديد مجال الاستدلال العقلي يمكن تقسيم العلوم التي يدركها العقل إلى ثلاثة أقسام[٣]:

---

(١) انظر: «الاعتصام»، للشاطبي (٢/ ٣١٨)، و«منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد»، د. عثمان بن علي حسن (١/ ١٧٤).

(٢) «في ظلال القرآن»، سيد قطب (٤/ ٢٢٤٩)، ومع هذا التعليق الجيد لسيد قطب رحمه الله فلا يخلو كتابه «في ظلال القرآن» من بعض الهفوات التي وقع فيها، خاصة في بعض الصفات كالاستواء وغيرها، ولعل ذلك عائدٌ في تقديري إلى: ١-بيئته العلمية التي كان يعيش فيها – الأشعرية- ٢- وعدم تخصصه في العلوم الشرعية.

(٣) انظر: «الاعتصام»، للشاطبي (٢/ ٣١٨-٣٢٢)، و«الرسالة»، للشافعي (ص٣٨)، و«منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد»، د. عثمان بن علي حسن (١/ ١٧٦).

أ- العلوم الضرورية: وهي التي لا يمكن التشكيك فيها؛ إذ أنها تلزم جميع العقلاء ولا تنفك عنهم، كعلم الإنسان بوجوده، وأن الاثنين أكثر من الواحد، واستحالة الجمع بين النقيضين، أو رفعهما إلى غير ذلك مما يُسمَّى بقوانين العقل الضرورية.

ب- العلوم النظرية: هي التي تُكتَسب بالنظر والاستدلال، وهذا النظر لابد في تحصيله من علم ضروري يستند إليه، حتى يعرف وجه الصواب فيه، وهذا القسم تدخل فيه كثير من العلوم كالطبيعيات، والرياضيات، والطب، والصناعات وغيرها، وهو نوعان:

○ نوعٌ يتمحض العمل فيه للعقل، وهذه عادة يكون في العلوم المفضولة، كالصناعة، والزراعة وغيرها.

○ والآخر يكون بالنظر في أدلة الشرع، وبذل الوسع لإقامة العبودية، قال الإمام الشافعي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، قال: «فخلق لهم العلامات، ونصب لهم المسجد الحرام، وأمرهم أن يتوجهوا إليه، وإنما توجههم إليه بالعلامات التي خلق لهم، والعقول التي ركبها فيهم، التي استدلوا بها على معرفة العلامات، وكل هذا بيان ونعمة منه جل ثناؤه»[1].

ج- العلوم الخبرية: وهذا القسم لا يُعلَم بواسطة العقل، إلا أنه يعلَمهُ بأن يُجعَل له طريقًا للعلم به، وذلك كالغيبيات، سواء كانت من قبيل ما يعتاده علم العبد: كعلمه بما تحت رجليه، وعلمه بالبلد القاصِي عنه، الذي لم يتقدم له به

---

(١) «الرسالة»، للشافعي (ص٣٨).

عهد. أو لا يعتاده: كعلمه بما في اليوم الآخر من بعث، وحساب، وجزاء، وتفاصيل ذلك، فهذا لا يعلم إلا عن طريق الخبر، ويدخل في ذلك كثير من مسائل الاعتقاد ولاسيما التفصيلية منها.

٣- اضطراب الميزان العقلي، لذلك لم يجعل الله تعالى مجرد إيجاد العقل للناس حجة يحاسبون عليها يوم القيامة، بل أرسل لهم المرسلين كما في قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٥].

ومن أدَلّ الصور على اضطراب الميزان العقلي لدى البشر ما نجده من اضطراب أرباب الاتجاه العقلاني الغربي في تحديد ميدان العقل، فديكارت وهو أبو الفلسفة الحديثة -كما يقال- يذهب إلى أن العقل أساس المعرفة في كل شيء إلا في الأمور الغيبية[١]، في حين يذهب غيره من الفلاسفة العقلانيين إلى أن العقل العقل لا حَدَّ له فهو أصل معرفة جميع الأشياء، فالفيلسوف «هيوم» يقول: «بأي حجة ندلل على أن إدراكات الذهن يجب أن تكون حادثة عن أشياء خارجية، وأنه لا يمكن أن تحدث عن قوة الذهن نفسه؟...»[٢]، فالذهن (العقل) لديهم أصل معرفة جميع الأشياء، وهذا أوقعهم في مغالطات كبيرة.

أما في الشريعة الإسلامية فإن من صور تكريمه للعقل أن حدَّد له ميادين يمكنه أن يسير فيها بأمان، ويمكنه أن ينجح فيها إذا استُخدِم استخدامًا

---

(١) انظر: «التأملات في الفلسفة الأولى»، ديكارت (ص٢٢٠) بتصرف، و«أقنعة ديكارت العقلانية تتساقط»، د. محمد عثمان الخشت (ص٢١).

(٢) «تاريخ الفلسفة الحديثة»، د. يوسف كرم (ص١٧٧).

صحيحًا، إذ عمله خارج مجاله هذا يعرضه للخطأ والتخبط؛ لأن هناك ميادين لا يدركها العقل- كعلم الغيب، مثلًا- وهناك ميادين لا يدرك العقل حكمها وعلَلِها على وجه الحقيقة كالتعبدات، فإشغاله بها مضيعة للجهد، وإيغال في المتاهات، فكان من إكرام العقل أن يُدفع للعمل فيما يحسنه ويوافق وظائفه وخصائصه.

▪ ▣ ▪ ▣ ▪

الخاتمة

من خلال ما تقدم يمكن أن أدون بعض النتائج والتوصيات، وهي على النحو التالي:

أولاً: أهم النتائج:

١- أن مصطلح الليبرالية من حيث المدلول اللغوي له عدة معانٍ إلا أنه قُصِرَ في الاستعمال على أحد مدلولاته وهي «الحرية».

٢- هناك اتفاق بين الباحثين والمختصين في الشأن الليبرالي على أن تحديد تعريفٍ لليبرالية مَهِمَّة تكتنفها الصعوبة والغموض؛ وذلك للأسباب التالية: غموض مبدأ الفردية، وغموض مبدأ الحرية، ومُسايَرة الليبرالية للواقع، وتعدد واختلاف الانتماءات الفكرية والثقافية لمنظِّريها ودُعاتها، وارتباط مصطلح الليبرالية بالرأسمالية.

وهذا الالتباس في المفهوم لا يمنع تلمس مقاربات تقود إلى معرفة طبيعة الليبرالية وسماتها التي تميزها عن غيرها من المفاهيم والمصطلحات، فأقول: «أن الليبرالية من الناحية الفكرية تعني: حرية الاعتقاد، والتفكير، والتعبير. ومن الناحية الاقتصادية تعني: حرية الملكية الشخصية، وحرية الفعل الاقتصادي المنتظم وِفْق قانون السوق. وعلى المستوى السياسي تعني: حرية التجمع، وتأسيس الأحزاب، واختيار السلطة.

٣- تنقسم الأسس المكونة لليبرالية إلى قسمين:

أ- ذاتية مميزة لليبرالية عن غيرها من المذاهب الفكرية الغربية التي ظهرت في عصر النهضة والتنوير، وهما أساسان: «الحرية» و«الفردية».

ب- مشتركة بين الليبرالية وغيرها من المذاهب الفكرية الغربية، وهي أساس واحد، هو: «العقلانية».

٤- الفردية لها استعمالان:

- الفردية بمعنى الأنانية، وحب الذات.
- الفردية بمعنى استقلال الفرد من خلال العمل المتواصل، والاعتماد على النفس.

٥- الفردية الكلاسيكية تعني: أن الأفراد يجب ألا يعتمدوا إلا على أنفسهم من أجل تحقيق مصائرهم، أما الدولة فمَهمَّتها محدودة، وفي هذه الصورة الفردية تصبح الحريات وكأنها إمكانَات أو طرق مقترحة أمام وسائل ومبادرات الفرد.

٦- الفردية الحديثة: وهي لا تعتقد بأن هناك حالة طبيعية للإنسان تستبطن الفردية، وأنها تظهر بشكل تلقائي عند انعدام الإكراه كما يتصوره الاتجاه التقليدي(الكلاسيكي)، ولكنها ترى أن الفردية تتكون من خلال العمل، وثقة الإنسان بقدراته، والتحرر من قيود العالم الطبيعي، والتعالي عليه، واستشعار القدرة على فعل أي شيء بثقة تامة.

٧- مبدأ الحرية بلغ من غموضه وإشكالية تحديد حقيقته أن وصلت تعاريفه إلى مِائتي تعريف.

٨- مع تباين آراء الفلاسفة في تحديد معنًى مناسبٍ للحرية، إلا أن مواقفهم اتسمت بسمتين:

الأولى: تحييد الدين، وعزله عن التدخل في مفهوم الحرية.

الثاني: تغليب الحرية الفردية، وطغيان الجانب الفردي في حدودها وطبيعتها.

٩- الحرية تنقسم إلى نوعين: الحرية الإرادية، والحرية المدنية. إلا أن الحرية المرادة والمقصودة في الفكر الليبرالي هي الثانية؛ فالليبرالية مذهب سياسي واقتصادي يسعى لتعميق الحرية الاجتماعية، وليس مذهبًا غَيْبيًّا يناقش موضوع القضاء والقدر، ومدى قدرة العبد على فعله.

١٠-الحرية المدنية تنقسم إلى اتجاهين:

○الاتجاه السلبي: هو قدرة الشخص على الفعل أو عدم الفعل، وانعدام العوائق التي من شأنها أن تأثر على حريته في الاختيار وعلى رأس تلك العوائق سلطة الدولة؛ لأن ممارسة الفرد لأعماله وتصرفاته بتلقائية ومن غير تخطيط لها توصله إلى البناء الحضاري بشكل تَراكمي.

○الاتجاه الإيجابي: يرى أنصار هذا الاتجاه أن المواطن ليس مجرد فرد يتمتع بحقوق طبيعية (الحرية) تلتزم السلطة العامة باحترامها وحمايتها، بل هو شخص يُشرِّع القوانين ويلتزم بطاعتها ومراعاتها، وبذلك فقط يكون حُرًّا، ولا تكون الحرية نقيضًا للقانون بل هي حقيقته وجوهره، ويرون ضرورة التخطيط لكل شيء للوصول إلى البناء الحضاري.

١١- لعل الارتباط الوثيق بين الفكر الليبرالي والمذهب الرأسمالي يفسر الازدواجية التي وقع بها منظري هذا الفكر كحال: جون لوك، وفولتير وغيرهما.

١٢-إن الحرية الفردية التي تنادي بها الليبرالية ليس المقصود بها الفرد الإنساني عامة، بل الفرد المالك بمدلوله الاقتصادي!

١٣- تكونت علاقة الليبرالية بالعقلانية عبر ثلاث مراحل: مرحلة التحديث، مرحلة الحداثة، مرحلة ما بعد الحداثة.

١٤-وسطية الإسلام في تعامله مع العقل، ويظهر ذلك من خلال: إعطاء العقل دوره الحقيقي والمناسب، وذلك من خلال التفريق بين العلوم الضرورية والعلوم النظرية وعلاقة العقل بهما.

⊠ ثانيًا أهم التوصيات:

١- ضرورة دراسة الأثر الاقتصادي على التوجه الفكري في الاتجاهات الغربية.

٢- دراسة التاريخ الأوربي ومعرفة الأسباب الحقيقية التي أدت إلى إيجاد حالة من الاحْتِرَاب بين الدين والفكر، ثم بيان ذلك للجيل المسلم؛ حتى لا يقع ضحيةً لأهل التلبيس ممن نُسِبُوا إلى الثقافة، والذين يحاولون تصوير سبب التخلف الذي وقع به المتأخرون من المسلمين بتمسكهم بالدين.

٣-ضرورة إظهار حالة الازدواجية لدى أرباب الفكر الأوربي بين تنظيراتهم وممارساتهم؛ حتى لا يقع الجيل ضحية الاستلاب المعرفي.

٤- نشر العلم الشرعي الصحيح المؤصّل، وتقريب منهج السلف الصالح لكافة شرائح المجتمع عبر كل وسيلة ممكنة؛ فإن ذلك من أعظم ما يقي الأمة من سبل الانحراف والزيغ عن الصراط المستقيم.

٥- العمل على إقفال كل دعوة تتضمن تجاوز الأدلة الشرعية؛ وذلك أولًا بنشر ثقافة تعظيم الأدلة الشرعية، وأن حقها الإتباع والتسليم، ثم القيام بالرد العلمي الموضوعي على كل شبهة تحملها تلك الدعاوى.

٦- فتح باب التواصل مع المتأثرين بالمناهج الغربية لكشف ما لديهم من شبهات، واستحضار مقصد الدعوة والهداية لا الإفحام والمغالبة.

٧- البحث في الجهات الخارجية الداعمة لأصحاب هذه المناهج وفضحها؛ حتى يعلم سواد الناس أن هذه المناهج مشبوهة فكرًا ومآلًا.

وأخيرًا فلست أزعم الكمال ولا المقاربة، وحسبي أني بذلت جهدي واستفرغت طاقتي، وأديت ما أرجو أن يكون معذرًا لي عند الله تعالى في الخطأ الذي لا أنفيه عن نفسي وعملي.

فإن يكن من صواب فمن الله وحده، وإن يكن من خطأ فهو من نفسي والشيطان والله ورسوله وكتابه منه براء.

والحمد لله أولًا وآخرًا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

▪ ◘ ▪ ◘ ▪

قائمة المصادر والمراجع

١- أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر مقاربات نقدية: علي حرب. دار الطليعة. بيروت. ط١. ١٩٩٤م.

٢- الاستدلال الخاطئ بالقرآن والسنة على قضايا الحرية: د. إبراهيم الحقيل. مركز البيان. الرياض. ط١. ١٤٣٤هـ.

٣- الإسلام والليبرالية نقيضان لا يجتمعان: جمع وترتيب: شحاتة صقر. دار الخلفاء الراشدين. الاسكندرية. ط بدون. التاريخ بدون.

٤- الاعتصام: لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي. دار الفكر، المكان بدون، ط بدون، العام بدون.

٥- إعلام الموقعين عن رب العالمين: لابن القيم الجوزية. تحقيق: مشهور حسن آل سلمان. دار ابن الجوزي. الدمام. ط١. ١٤٢٣هـ.

٦- الإنسان ذلك المجهول: ألكسيس كاريل. شرح بولس سويد المخلصي. تقديم أمين نخلة. ط١. ١٩٤٠م.

٧- إنسانية الإنسان: رالف بارتون بري. ترجمة: سلمى الخضراء الجيوسي. مكتبة المعارف. ١٩٦١م.

٨- بدائع الفوائد: لابن القيم الجوزية. دار الكتاب العربي. بيروت. ط بدون. تاريخ بدون.

٩- تاريخ الفكر الأوربي الحديث: رونالد سترومبرج. ترجمة: أحمد الشيباني. دار القارئ العربي. القاهرة. ط٣. ١٤١٥هـ.

١٠- تاريخ الفلسفة الحديثة: يوسف كرم. دار المعارف. القاهرة. ط٥. التاريخ بدون.
١١- تساقط أقنعة ديكارت العقلانية: محمد الخشت. القاهرة. دار قباء. ١٩٩٨م.
١٢- تطور الفكر السياسي من الاشتراكية إلى الليبرالية الجديدة: عدنان السيد. دار أمواج للنشر والتوزيع. بيروت. ط١. ٢٠٠٢م.
١٣- جاهلية القرن العشرين: محمد قطب. دار الشروق. مصر.١٣٩٨هـ.
١٤- حدود الحرية: آيزا برلين. ترجمة: جمانا طالب. دار الساقي. بيروت. ط٢. ١٩٩٢م.
١٥- الحرية الثقافية: جون ديوي. ترجمة: أحمد قنديل. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة. ط بدون.
١٦- حقوق الإنسان وحرياته الأساسية: هاني الطعيمات. دار الشروق. مصر. ١٤٢٢هـ.
١٧- حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها: د. عبد الرحيم السلمي. مركز تأصيل. جدة. ط١. ٢٠٠٩م.
١٨- حكمة الغرب: برتراند راسل. ترجمة: فؤاد زكريا. عالم المعرفة. الكويت. طبعة بدون. ١٩٨٣م.
١٩- الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا: د. يوسف القرضاوي. مكتبة وهبة. ط٦. ٢٠٠٦م.
٢٠- درء تعارض العقل والنقل: لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية. تحقيق: محمد رشاد سالم. الدار بدون، المكان بدون. ط بدون. السنة بدون.

٢١- الرأسمالية والحرية: ميلتون فريدمان. ترجمة: يوسف عليان. مركز الكتب. الأردن.١٩٨٧م.

٢٢- الرسالة: للإمام محمد بن إدريس الشافعي. تحقيق: أحمد شاكر. المكتبة العلمية. بيروت. الطبعة بدون. العام بدون.

٢٣- صراع الحضارات: أ. د. جعفر إدريس. مركز البيان. الرياض. ط١. ١٤٣٣هـ.

٢٤- الصفدية: لابن تيمية. تحقيق: محمد رشاد سالم. دار الفضيلة. الرياض. الطبعة بدون. ١٤٢١هـ.

٢٥- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: لابن القيم الجوزية. تحقيق: علي محمد الدخيل الله. دار العاصمة. الرياض. ط٣. ١٤١٨هـ.

٢٦- العقل والإيمان في الإسلام: صابر طعيمة. دار الجيل. ط١. ١٣٩٩هـ.

٢٧- العلم والدين في الفلسفة المعاصرة: أميل بوثرو. ترجمة: أحمد الأهواني. مصر.١٩٧٣م.

٢٨- الفردية قديمًا وحديثًا: جون ديوي. ترجمة: خيري حماد؛ مراجعة مروان الجابر. دار مكتبة الحياة.١٩٦٠م.

٢٩- فضاءات الحرية: سلطان العميري. المركز العربي للدراسات الإنسانية. الرياض. الطبعة بدون.٢٠١٣م.

٣٠- في ظلال القرآن: سيد قطب. دار العلم. جدة. ط١٢. العام بدون.

٣١- القانون الدستوري والمؤسسات السياسية: أندري هوريو. ترجمة: علي مقلد وآخرون. الأهلية للنشر والتوزيع. بيروت.١٩٧٧م.

٣٢- قصة الفلسفة الحديثة: أحمد أمين. المكتب الإقليمي لشؤون المكفوفين. ١٩٨٦م.

٣٣- قصة النزاع بين الدين والفلسفة: د. توفيق الطويل. مكتبة مصر. القاهرة. ط٢. ١٩٥٨م.

٣٤- الليبرالية إشكالية مفهوم: د. ياسر قنصوة. رؤية للنشر. القاهرة. ط١. ٢٠٠٨م.

٣٥- الليبرالية الجديدة أسئلة في الحرية والتفاوضية الثقافية: د. عبد الله الغذامي. المركز الثقافي. الدار البيضاء. ط١. ٢٠١٣م.

٣٦- الليبرالية المصرية: د. رفعت السيد. الأهالي للطباعة والنشر. دمشق. ط١. ٢٠٣٣م.

٣٧- الليبرالية في الفكر العربي: حسين معلوم. المجلس القومي للثقافة العربية. الرباط. ط١. ١٩٩٢م.

٣٨- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم، محمد عبد الرحمن بن قاسم. مجمع الملك لطباعة المصحف الشريف. المدينة المنورة. ط (بدون).١٤١٦هـ.

٣٩- المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها: د. عبد الرحمن عميرة. دار اللواء للنشر والتوزيع. ط٢. ١٣٩٨هـ.

٤٠- مذاهب فكرية معاصرة: د. محمد قطب. دار الشروق. القاهرة. ط٥. ١٤١١هـ.

٤١- مشكلة الحرية: د. زكريا إبراهيم. مكتبة مصر. القاهرة. ١٩٧٢م.

٤٢- معجم الفلسفة أهم المصطلحات وأشهر الأعلام: محمود يعقوبي. دار الكتاب الحديث. القاهرة. الطبعة بدون.١٤٢٩هـ.

٤٣- المعجم الفلسفي: د. جميل صليبا. دار الكتاب العالمي. بيروت. ١٤١٤هـ.
٤٤- مفهوم الحرية في الإسلام دراسة في مشكلات المصطلح وأبعاده في التراث العربي الإسلامي: فرانز روزنتال. ترجمة وتقديم: معن زيادة، رضوان السيد. دار المدى الإسلامي. ط٢. ٢٠٠٧م.
٤٥- مفهوم الحرية: د. عبد الله العروي. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. ط٦ . ٢٠٠٢م.
٤٦- مفهوم الليبرالية عند جون ديوي: د. ياسر قنصوة. رسالة ماجستير في كلية الآداب. جامعة القاهرة. ١٩٩١م.
٤٧- مقال عن المنهج لأحكام قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم: رينه ديكارت. ترجمه وشرحه وصدره بمقدمة: محمود محمد الخضيري. الدار بدون. القاهرة. ١٩٣٠م.
٤٨- منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد: د. عثمان بن علي. مكتبة الرشد. الرياض. ط٤. ١٤١٨هـ.
٤٩- الموسوعة العربية العالمية: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع. السعودية. ط١. ١٤١٦هـ.
٥٠- موسوعة لالاند الفلسفية: أندرية لالاند. ترجمة: خليل أحمد خليل. منشورات عويدات. بيروت. ط٢. ٢٠٠١م.
٥١- موقف الليبرالية في البلاد العربية من محكمات الدين: د. صالح الدميجي. مركز بيان. الرياض. ط١. ١٤٣٣هـ.
٥٢- نقد الليبرالية: د. الطيب بوعزة. مركز البيان. الرياض. ط١. ١٤٣٠هـ.

الفهـرس

الـموضوع | الصفحة